الـثـقـافـــة الـسـيـاسـيـــة فـي الـفـكـر الاجـتـمـاعـي الـمـعـاصـر

-الـغـزالـي أنـمـوذجـا-

د: حبـاسي خالـد

جامعـة الـوادي

ملخص:

مصطلح " الثقافة السياسية " مصطلح تفسيري يوضح جانبا من أسباب نشأة أي نظام سياسي وفشله أو نجاحه.

يرى الغزالي أن الكثرة الغالبة من العاملين في ميدان الفقه تنأى عن الشأن السياسي، ومنهم من يستنكر أصلا أن يكون هناك علاقة من أي نوع بين السياسة والدين بشكل عام. كما يرى وجوب السعي في تبصير الأمة بشؤونها العامة، وتعريفها بحقوقها وواجباتها، وتربيتها على الحس السياسي، والمشاركة فيه. لأن غياب هذه التربية قد أفرز ما نلاحظه من معوّقات كبرى تسهم في تشويه الثقافة السياسية للأمة، هذه المعوّقات هي:

1.داء النظرة الجزيئية، وعدم قدرة بعض الناس على ترتيب الأولويات.

2.اتسام جمهرة المتدينين بقصور بالغ في الفكر السياسي.

3 . تصدر المتزمتين والمتشددين قافلة الشأن السياسي. ومثلما أن للسلطة أثرها ووظيفتها في تحقيق قيم الإسلام، فللجماهير مثل ذلك.

Abstract:

The term "political culture" is an expository term which explains reasons for the emergence of any political regime , its failure or success.

The eminence Ghazali believes that the overwhelming majority of Fiqh scholars are away from politics, and as a matter of fact ,some of them deny the relationship between politics and religion.

He also seeks to enlighten the nation thought with the public affairs by defining rights and duties, and making its political feeling grow into political participation Because the lack of education is a result for all what we observe such as: serious obstacles which mislead the political culture of the nation, consequently they are: first, dividing vistion disease , moreover , some people are not being able to prioritize. Second, the majer religious persons are weak in sense of political trend. Third, extrimists are the upperhands concerning political affairs. As far As the impact of authority and function of It for achieving the values of Islam, and the audience otherwise.

مقدمة

من بين الشخصيات الفكرية التي تستحق جانبا كبيرا من الاهتمام و الدراسة الشيخ محمد الغزالي الذي يمثل بحق كما يذكر المستشار طارق البشري تحديا للمؤرخين المحدثين للفكر السياسي والاجتماعي المعاصر، سواء في مصر أو في بلاد العرب بعامة، ونحن نتساءل هل يمكن أن يتجاهلوه كما تجاهلوا غيره من مشربه الفكري؟, أم سيضطرون إلى الإقرار بوجوده و تحليل أعماله؟, وهنا سيشدهم الغزالي و يطرح أمامهم كل من سبقه، وكل من سيتبعه في هذا المشرب.

و لا يهم رأي الباحث فيه، إنما نتكلم عن محض اعترافه بهذا الفكر، و أن الذي يقوله أو يكتبه إنما هو " فكر" أعلى الباحث من شأنه أم شد عليه النكير، و اعتبره مسوغا للتقدم أو جاذبا نحو التخلف، فالأمر ليس أمر التحسين و التقبيح، إنما هو الاعتراف بالوجود، و الإقرار بأن الفكر المصري إذ يضم لديهم أمثال : لويس عوض، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، ومحمد حسين هيكل ... فإنه يضم بين طياته أيضا : المراغي، ومحمود شلتوت ، وحسن البنا، والأخوين محمد ومحمود شاكر، ويوسف الدجوي، وعبد الله دراز، وطنطاوي جوهري، ومحمد فريد وجدي ....الخ .

فكيف بالشيخ الغزالي، الذي أصدر على مدى خمسين عاما من حياته النافعة للإسلام وأمة المسلمين، وللوطن المصري، و للعروبة، ما يربو على الستين كتابا، و الغالبية الغالبة منها تكاد تكون في الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وفي ذات القضايا التي أثارها و تكلم فيها أبناء المشرب المقابل للتيار الإسلامي، عن العدالة الاجتماعية، والعروبة، والاستبداد السياسي، والشيوعية، وحقوق الإنسان.

لذلك فليس من السهل – مهما تكن المبررات – أن يتجاهل المؤرخون المحدثون موقع محمد الغزالي في مجال التأريخ للفكر السياسي الاجتماعي المعاصر.

ولعل الإطلاع على كتب الغزالي – و قد كانت تحوي حديثا دافقا جادا و طويلا في قضايا فكرية سياسية – سيعطي فكرة واضحة وجلية يتمكن من خلالها الباحثون و المجتهدون في علم السياسة الإسلامي من تكوين صياغة نهائية لفكر سياسي أصيل غير دخيل، ذلك أنها تضمنت بحق صياغة أولية جيدة لتعاليم الإسلامي في هذا الميدان، و قدمت مادة فكرية و فقهية زاخرة، وعالجت الواقع المعيش من غير أن تبتعد عنه لتحلق في سماء التجريد، واتسمت في مجملها بالواقعية والاعتدال، مع التزام بالأصول الإسلامية، وممارسة المستجدات و الابتلاءات المترامية على العالم الإسلامي، فيمكن أن تعتبر المرجع الأوفى، و الحيثيات التي يمكن أن تستند إليها الصياغة الإسلامية المطلوبة في هذا المجال.

وكتابات الغزالي السياسية و إن كانت قد تأسست عليها، و تفرعت عنها كتابات سياسية إسلامية، هي أكثر تخصصا، إلا أنه يمكننا أن نعدها من –منظور تاريخي للفكر الإسلامي الحديث– حلقة تطور و انتقال مهم، أفضى إلى النهضة الماثلة للفكر السياسي الإسلامي المعاصر.

وإذا أمكن اعتبار كتب الشيخ أبي زهرة الفقهية، مدخلا جيدا للولوج إلى عالم الفقه الإسلامي، واستيعاب دواوينه الموسوعية الشاملة، فإنه بإمكاننا القول كذلك أن كتب الغزالي السياسية هي المدخل المناسب لولوج عالم النظم الإسلامية، مثلما أنها حلقة انتقال وسيطة نحو التنظير السياسي الإسلامي المنشود[1].

الموقع الفكري للشيخ:

ينتمي الغزالي إلى مدرسة تجديد الفكر الإسلامي الحديثة ، ويعتبر أحد أجيالها في هذا العصر . هذه المدرسة التي بدأت في القرن الماضي على يد جمال الدين الأفغاني, وتلاه جيل الإمام محمد عبده. واستمرت من

خلال الجهود الفكرية لرشيد رضا عبر مجلة المنار ، ثم الجهود الإصلاحية لمصطفى المراغي في الأزهر الشريف ، فقد سلكت هذه المدرسة رؤية تجديدية وإصلاحية حمل لوائها هؤلاء الرواد جيلا بعد جيل ، فأثمرت التكوين الفكري للشيخ محمد الغزالي والذي مثل الجيل الخامس في هذه المدرسة. ولا يخالج أيّ باحث منصف شك في كون الغزالي واحدا من أبرز أعلام المدرسة الفكرية التي يطلق عليها " مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة للفكر الإسلامي " وخاصّة فصيلها الذي انتقل بقضايا الفكر الإسلامي من إطار " الصفوة " . كما كان على عهد محمد عبده . إلى إطار " الأمة وجماهيرها " وهي المرحلة التي بدأت بالشيخ حسن البنا .

وتعد اجتهادات الغزالي السياسية الثمرة الناضجة لجهود المدرسة الإصلاحية التي بدأت بوجه سياسي سافر على يد الأفغاني ، ثم اتخذت منهجا تربويا تعليميا تكوينيا متأنيا على يد محمد عبده، ثم عادت على يد رشيد رضا ومدرسة المنار لتشتغل في إطار العلوم الشرعية مع الإهتمام بقضايا العالم الإسلامي السياسية وقد كان لمدرسة المنار فضل تعميق الخطين معا : الخط السياسي الثوري للأفغاني، والخط التربوي التكويني لمحمد عبده، وذلك مع تصحيح أطر التفكير التي أرساها كل من هذين الرائدين[2].

ولأن الشيخ رضا كان أقل " راديكالية " ، وأكثر دأبا من سابقيه ، فقد أدّت مثابرته في عالم الكتابة والنشر إلى التأسيس الحقيقي ، لما يعرف وفق التسمية الفضفاضة غير الدقيقة بالمدرسة السلفية .

وقد أسهمت إشعاعات تلك المدرسة في إنضاج أفكار عدد من أعلام الفكر والعمل السياسي الإسلامي أمثال : عبد الحميد بن باديس ، وعبد الكريم الخطابي، وحسن البنا . وهنا يمكن إرجاع الفضل إلى جهود الشيخ رضا في تنقية فكر الشيخين الأفغاني وعبده، وترشيحه عبر منظوره السلفي النقلي، وتقديمه مخلصا من شطحاته وشوائبه، ليكون أساسا لفكر عصر اليقظة الإسلامية.

وإلا فإن أفكار الأفغاني ومحمد عبده في صورتها الأولى ، قد أنجبت عددا من التلاميذ ممن لا يمكن وضعهم في سياق فكري سياسي إسلامي ، شأن سعد زغلول ولطفي السيد ، وكلاهما كان يعتز بتتلمذه على خط محمد عبده ، ويظن أنه كان الامتداد الحقيقي لذاك الخط .

بل إن بعضهم كان يستنكر بحنق واضح جهود الشيخ رضا في تصحيحه خط الإمام , كما يستكثر عليه أن يكون الوارث الحقيقي لخط المدرسة السلفية بزعم أنه كان مقلدا أكثر منه حاملا للواء التجديد[3].

فالغزالي من أبرز المفكرين الذين ورثوا خط السيد رشيد رضا النابض بالإيقاعات السياسية ، وقد استطاع بجدارة أن يعطي ذلك الخط دفعة قوية، استقاء من دراساته الشرعية النظامية، ومن انخراطه في قيادة العمل السياسي التنظيمي في جماعة الإخوان المسلمين التي انتظم في خطها إلى أواسط الخمسينات ، ثم تخلى عنها تنظيميا، من دون أن يتباعد عنها فكريا أو سياسيا.

وقد نظلم الشيخ الغزالي إذا لم ننبه إلى تميّزه في الفصيل الذي كان إمامه في مدرسة الجامعة الإسلامية فلقد كان متميّزا منذ بدأ مشروعه الفكري سنة 1947م بكتابه الأول "الإسلام والأوضاع الاقتصادية .. ثم إن الرجل قد امتدت به التجربة, وامتد به الجهاد بعد استشهاد حسن البنا، أكثر من أربعين عاما .. فواجه مالم يواجه هذا الفصيل في النصف الأول من القرن العشرين .. ومن ثم فقد أبدع الجديد الذي أضافه إلى رؤية هذا الفصيل[4].

هذه المدرسة وإن اعتمدت الأثر والرأي معا، وسلكت سبيل الموازنة والترجيح بينهما فإنها تميزت عن مدرسة ابن تيمية (بترويجها للعقل ، وتقديم دليله ، واعتبارها العقل أصلا للنقل . وهي تقدم الكتاب على السنة ، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد.

وهي ترفض مبدأ النسخ ، وتنكر إنكارا حاسما أن يكون في القرآن نص انتهى أمده .

وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به ، ولكنه غير ملزم ، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي ، وتحترم علم الأئمة ، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية ، ولا تلقي بالا إلى مقولات الفرق والمذاهب القديمة والحديثة)[5].

الثقافـة السياسيـة حق من جملة الحقوق:

نعتبر أن الثقافة السياسية هي حق من جملة حقوق يجب أن يتمتع بها المواطن العربي المسلم، وفي الوقت نفسه فإنها تعتبر وظيفة من وظائف الدولة تجاه مواطنيها عليها أن تغرسها في فكر الجماهير وعقولها...

إننا نعتبرها ضميمة أساسية للحقوق التي أقرّتها المجتمعات الغربية لمواطنيها حديثا ، وأقرها ديننا قبل حوالي أربعة عشر قرنا من إقرار هذه الأمم لها .

وذلك من مثل حقوق: الحياة والتعليم ، والعدالة ، وحماية الملكية ، وحماية خصوصيات الفرد، والحرية الدينية ، والحماية من التعذيب، والحماية من تعسف السلطات، وحرية الإرتحال والإقامة، والتربية، واللجوء السياسي ... إلخ .

أليس من الغريب أن نجد هذا المواطن جاهلا بحقوقه الأساسية والحريات التي له تجاه السلطات الحاكمة ، وتجد جماهير غفيرة من البشر تحسب أنفسها قطعانا هائمة لا أمل لها في الحياة ، قطعانا ذلولا لكل راع غشوم أو مستبد ظلوم .

ولئن وجدنا في هذه المجتمعات سيادة ظاهرة لثقافة المشاركة ، ففي أمتنا المسكينة ستجد رواجا هائلا لثقافة الخضوع ، والثقافة الهامشية[6].

مفهوم "الثقافة السياسية":

مصطلح " الثقافة السياسية " أحد المصطلحات حديثة الاستخدام في علم السياسة، طوّر مفهومه بشكل خاص على يد مؤلفين أمريكيين ، ولا سيما غابرييل آلموند (g. almond).

وهو مصطلح تفسيري يوضح جانبا من أسباب نشأة أي نظام سياسي وفشله أو نجاحه، فهو يوضح مثلا لماذا نشأ النظام البرلماني في بريطانيا، ولماذا نشأ النظام الأمريكي مختلفا عنه؟.

ويحاول أن يستنتج أسباب ذلك من الطبيعة النفسية للشعبين، ومن الثقافة السياسية السائدة في ذينك المجتمعين ، باعتبار أن هذين النظامين ما كان لهما أن يتوطدا ويستقرا ويجتازا الاختبارات والهزات ، ما لم تكن لهما أسس قائمة من ثقافة الناس[7]. وكما جاء في الأثر الشريف πكما تكونوا يولى عليكمι[8].

فإنه يمكننا إذن أن نعرف الثقافة السياسية بأنها: (ذلك النسق من الإدراكات والمشاعر والمواقف والتوقعات ، الذي يحمله المواطنون تجاه حكوماتهم ، وكذلك طريقتهم في تقويم أعمال الحكومة، وتقويم مشاركتهم في صنع القرار السياسي)[9].

(وقد كان الغزالي حريصا عل تصفية الأجواء الفكرية والثقافية من موروثات عصور الانحطاط التي قامت على التعايش مع الاستبداد، والتجافي عن التعاطي مع الشأن السياسي، وهذا حقيقة داء عضال، كانت له أسبابه القديمة من إدبار الحكام عن الشريعة، وكراهيتهم أو عدم رضاهم عن الحديث في السياسة في دوائر العلم الشرعي، أو في دائرة العلماء المحظيين، ثم أصبح ذلك بمضيّ الزمان علة متأصلة في الثقافة الدينية .

وأصبحت الكثرة الغالبة من العاملين في ميدان الفقه بمنأى عن الشأن السياسي، ومنهم من تجده يعلن ذلك بالصراحة القاطعة ، ومنهم من يستنكر أصلا أن يكون هناك علاقة من أي نوع بين السياسة والفقه أو

الدين بشكل عام ، بل إن منهم من ينعى على من يفهم الدين فهما شاملا بأن فهمه للإسلام فهم سياسي ، هذا إذا لم يتهم السرائر بسوء الغرض ونية استغلال الدين لمآرب أخرى) [10].

وفي هذا المعنى تحديدا يقول الغزالي– رحمه الله–: (في عملي بميدان الدعوة اكترثت لهذه الأسئلة، ورفضت تجاوزها وقلت : لابد من إكراه الكبار والصغار على الاهتمام بها، فإن فساد نفر من الحكام جر على ديننا وأمتنا بلايا غليظة.

إن الخونة الذين مهدوا لسقوط إنطاكية والقدس وغيرهما نسلوا في عصرنا هذا من يمهد لضياع عواصم الإسلام كلها ، والسكوت كفر...

في القارات الخمس تعطى الشعوب الحق أن تستبقي الحاكم الذي تحب ، وتستبعد الحاكم الذي تكره . فما الذي يجعل الأمة الإسلامية تشذ عن هذه القاعدة في أغلب أقطارها؟.

وارتقت أجهزة الشورى ارتقاء عظيما وتطورت محاسبة الحكام تطورا جذريا فكيف تبقى لحاكم في بلادنا عصمة ؟ وكيف يبقى فوق المساءلة ؟

وظفر الفرد في أرجاء الدنيا بضمانات لصون دمه وماله وعرضه ، ومثوله أمام قضاء عادل حصين إذا بدر منه خطأ ، فلماذا يحرم الفرد عندنا مما توفر لغيره من خلق الله ؟؟..

وعجبت لمتحدثين في الإسلام يسكتون عن هذه القضايا ، ويستمرئون الثرثرة في قضايا أخرى لا تمس الحاضر ولا المستقبل ، وإنما تشغل الفراغ وتقتل الوقت وحسب.

كل شيء يمر بأذهانهم إلا قضايا الحرية الفكرية والسياسية وحقوق الأفراد والشعوب).[11]

وفي سياق تجاهل بعض العلماء لشأن السياسة يحكي لنا الشيخ الغزالي الطرفة ذات الدلالة التالية : (أرسل أحد الظرفاء سؤالا إلى لجنة الفتوى ظانا أنه يستطيع أن يستدرجها بذلك للحديث في شأن السياسة من المنظور الديني...وقد غلف سؤاله بغلاف اجتماعي يتعلق بقضايا الزواج والطلاق، التي تركها الزمنيون لرجال الفقه، وكان السؤال كالآتي:رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التي جرت في البلاد كانت مزورة.فهل تطلق امرأته أم لا؟

وعلق الشيخ الغزالي قائلا: (إن لجنة الفتوى كانت من اليقظة والانتباه بحيث لم تقع في ذلك الشرك، ولن تقع فيه ولو بقيت تلك المرأة معلقة أبدا الدهر.)[12].

فهؤلاء العلماء الذين كان ينبغي أن يكونوا طلائع أهل الحل والعقد ، الذين يزوّدون صناع القرار بالنصح السديد ، ويقفون معترضين على كل تجاوزات الحكام للشريعة، ومصالح جماهير الأمة الإسلامية.

لقد أصبحوا من السلبية بمكان، وأسهموا في شكل الثقافة السياسية التي مكنت الحكام من الانفراد بشؤون الحكم .

إن هؤلاء العلماء قد أسهموا حقا في نشر الثقافة الفاسدة والتي كانت المستنقع الآسن لنمو جراثيم السياسة الفاسدة ، فإذا لم تكن هناك ثقافة من هذا النوع سعت السلطة لخلقها واحتضان رجالها وفي هذا يقول الغزالي : (وثمّ أمر جدير بالإبراز والإثارة ! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو في جو الثقافة الفاسدة، وهي إذا لم تجدها سعت لخلقها واحتضان رجالها، وأرى أن كثيرا من المعارف المسمومة والفتاوى الكاذبة والأحكام الطفيلية، قد عاشت وغلظت في حضانة الحكم الفردي والاستبداد السياسي..

وقد لاحظت أن جماهير المسلمين عدة قرون، احتبست في مجادلات لا تساوي قلامة ظفر، وهاجت أعصابها في خلافات محمومة لا طائل تحتها، وذلك في وقت كانت رقعة الإسلام تتكمش، وأعداؤه يشتدون ، وشؤونه العظمى يبتّ فيها التافهون.

إنني شعرت أن ذلك مراد ، وإذا لم يكن مخططا فقد تم لمصلحة الطاغين ، الذين يعنيهم أن تنشغل الأمم عنهم وعن مباذلهم .

وفي عصرنا هذا تقوم شتى الفنون والألعاب الرياضية بما يشبه هذا الدور، ولا أدري لماذا تهتاج أمة لهزيمة رياضية ، ولا تهتز لها شعرة لهزائمها الحضارية والصناعية والاجتماعية..؟!) [13].

فالسلطات القائمة تعرف المكانة الشعبية للإسلام ، ومن هنا فهي تؤوي إلى كنفها صنفا من علماء الدين يطلق عليهم العلماء الدواجن لا شوكة لهم ولا غيرة ، يمثلون الإسلام نحوا ما ، أي كما يحب القائمون على الحكم تمثيله، ونفي شبهة الإرتداد عن أعدائه.

وفي أمثال هؤلاء . والذين سمّوا في الأدبيات الإسلامية كذلك بـ: علماء البلاط ، أو علماء السوء ، أو علماء السلطان.. . يذكر الغزالي أن صديقا له يشتغل في الإعلام قال له يوما:

طلبنا من فلان أن يضع لنا جملة أحاديث في تحديد النسل قال: تريدون أن أكتب بالحل أم بالتحريم؟ فقال له المجيب ساخرا: خمسة أحاديث بالحل ، وخمسة أخرى بالحرمة !!

قلت : هذا الشيخ يصلح مفتيا للجمهورية، أو وزيرا للأوقاف! قال: أو شيخا للأزهر؟.

قلت بعد تريث : أو شيخا للأزهر إن أولئك الثلاثة [14] إبّان الحكم العسكري حمّلوا الإسلام مالا يطيق، لا في مصر وحدها، بل في أقطار أخرى!

إنهم ونظراؤهم سخروا الفقه لهوى الرجال والنساء واخترعوا أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان... وما كسبوا إلا غضب الله سبحانه ، وكراهية الصالحين من عباده ، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها.) [15].

وكم كان طريفا وموفقا أن يضمّن الغزالي في بعض من كتبه أنماط الثقافات الثلاث التي كانت تسود المجتمعات عامة ، والجبهة الدينية على وجه الخصوص ، وهو لم يقصد بطبيعة الحال ما اكتشفه آلموند غابرييل من هذا المسمى بالثقافة السياسية تحديدا ، وصار مفهوما جديدا في علم السياسة ، لكننا نقدّر أن العقل البشري على اختلاف الأماكن والأزمان بإمكانه أن يهتدي إلى الحقائق الواحدة عبر الغوص في بطون الكتب أو عبر استخلاص الآيات والعبر التي تمر بها كل أمة عن كثب ، حتى وإن اختلفت المناهج والأساليب، وكان لكل لغته ومصطلحاته الخاصة به .

ففي تصويره للثقافة الهامشية وثقافة الخضوع يذكر في مقال له يصف به علل الأمة المصرية قوله: (...وجماهير غريقة في الجهالة السائدة تعيش على الخرافة ، وتتعلق بقشور من الدين لا تزن عند الله شيئا ، وتنقاد مع الحبال التي وضعها الحكام الفسقة في أعناقها فهي تنجر إلى مصارعها دون وعي !) [16].

وليس هذا فحسب بل إن باستطاعة هذه السلطات القائمة التحكم حتى في سلوك الأفراد ومواقفهم [17] وذلك لمّا تلزمهم مقاييس خاصة في فهم التقدم والتأخر ، والرفعة والضعة والاستقامة والشر ، وهذه التقاليد هي الأخرى تقوم على احترام النظام السائد ، وتوجيه الجمهور إلى الاستكانة إليه ، بل إلى التسابق في تقديسه.

والعصر الحاضر يمدنا بأمثلة تدلنا على أن وسائل الإعلام الجماهيرية للثقافة . عندما تحتكرها الحكومة . تستخدمها وسائل لتضليل الجماهير كأسوأ ما يكون التضليل. فلم يعد هناك حاجة للقوة الغاشمة لحمل الشعب على عمل شيء ضد إرادته. حيث يمكن الوصول إلى ذلك اليوم بطريقة مشروعة، وذلك بشل إرادة الشعب عن طريق

تغذيته بحقائق مغلوطة جاهزة ومكررة، ومنع الناس من التفكير أو الوصول بأنفسهم إلى أحكامهم الخاصة عن الناس أو الأحداث[18].

لقد أثبت علم نفس الجماهير، كما أكدت الخبرة، أنه من الممكن التأثير على الناس من خلال التكرار الملح لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع[19].

وتنظر سيكولوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التليفزيون على الأخص باعتباره وسيلة، ليس لإخضاع الجانب الواعي في الإنسان فحسب، بل الجوانب الغريزية والعاطفية، بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة[20].

وترى جميع المجتمعات الشمولية فُرصتها في التليفزيون وتندفع ألاستخدامه وهكذا أصبح التليفزيون تهديدًا للحرية الإنسانية، أكثر خطرًا من البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسي.

وأعتقد أن الأجيال القادمة . ما لم تكن قدرتها على التفكير قد دُمرت تمامًا . سوف تُصدم باستشهاد الجيل الحالي المستهدف بدون عائق لتأثير هذه القوة الضارية التي لا رابط لها. فإذا كانت الدساتير في الماضي توضع للحد من سطوة الحكام، فإن دستورًا جديدًا سنحتاج إليه لكبح جماح هذا الخطر الجديد الذي يهدد بإقامة عبودية روحية من أسوأ الأنواع.

ومن أبدع الأمثلة التي ذكرها الغزالي أيضا وضمّنها أنماط الثقافات الثلاث وحال أهلها ، الأمة التي ظهر بها قارون ، ذلك أن الدارس سيجد بها أخلاطا من الناس يمتاز كل خليط منها بوضعه وفلسفته وثقافته وأحواله .

(..فهناك أعوان الظلم الذين يتملقون أربابه ، ويعيشون في ركابه ، يعيشون حواشي للجبارين، يزينون لهم المقابح ، ويرتكبون معهم الفضائح. وهناك أنصار العدل الاجتماعي ، وحماة الوحي الإلهي الذين يستنكرون المظالم ، ويجتهدون في مكافحة الطغيان ، ويضعون على طريق الشر معالم حمراء ، ويصيحون بقارون وغيره [لا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين] [القصص: 77].

وهناك العبيد الذين تسقط القوارع على رؤوسهم فلا يستيقظون ، ويتخذ الكبراء من شعورهم حبالا، ومن جلودهم نعالا ، وهم مع ذلك بالدون راضون ، يحصدهم الموت وهم في خدمة السادة أبدا ، فتتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم...)[21].

فمما مر بنا نجد أن الغزالي كان من أشد الناس حرصا على محاولة تكوين ثقافة سياسية صحيحة لأمتنا ، هذه الأمة التي ترنحت دهرا تحت وطأة الجهل والاستبداد ، حتى صارت تتجافى عن التعاطي مع مقتضيات الشأن السياسي ، وكل ما يتصل به من قريب أو من بعيد .

– إعطاء المحتوى الإيجابي لثقافة المسلمين السياسية:

ما يجب أن يعلم بداهة هو أن التربية السياسية . والتي تمثل السلوك الصحيح في الإسلام تنبع من العقيدة الإسلامية ، ومن مبادئ الإسلام وأصوله ، ومن أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها . لذلك يجب السعي بغية تكوين ثقافة سياسية تستمد من جملة هذه المبادئ التي ذكرنا، أي : السعي لتقويم التصور والفهم حتى يغدو تصورا صحيحا، ومن ثم يتولد منه السلوك الصحيح .

ليست التربية السياسية في المنظور الإسلامي خارجة عن سياق المنهج الإسلامي وعن روح الإسلام، وعن فلسفته العامة التي هي جوهرُ رسالته وجماع تعاليمه، وإنما هي جزءٌ أصيلٌ لا يتجزأ من المنظومة الشاملة

المترابطة المتكاملة، التي تشكّل القيمَ والمقوّماتِ الأساسَ للتعاليم الإسلامية الهادية إلى أقوم السبل في الحياة ، على المستويين الفردي والجماعي.

وشمولية الإسلام ورحابتُه اللتان تجعلان منه منهجاً متكاملاً للحياة ، تقضيان بأن تكون التربية السياسية أحد العناصر المكوّنة لمفهوم التربية على وجه العموم، في دلالاته العميقة وفي مجالاته المتعددة ، بحيث لا يجوز، بل لا يمكن إطلاقاً الفصل في المنظور الإسلامي، بين التربية السياسية، وبين التربية الأخلاقية، بين تربية الفرد، وبين تربية المجتمع، لوحدة المنهج الإسلامي ، ولشمولية الرؤية الإسلامية إلى الإنسان وإلى المجتمع ، وإلى الكون بصورةٍ أعمق وأشمل.

وهذا المذكور يوجب على العلماء والكتاب والمفكرين وجوبا عينيا ضرورة السعي في تبصير الأمة بشؤونها العامة، وبحقوقها وواجباتها، والعمل على تنشئة الشباب المسلم على الحس السياسي، والانفعال مع مطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في العمل السياسي بأفق مستقبلي واسع وعقلانية خصبة ، وتربص وتريث في انتظار الجولات والنتائج .

إن غياب هذه التربية قد أفرز ما نلاحظه على نطاق جبهة العمل الإسلامي من معوّقات كبرى تسهم في تشويه الثقافة السياسية للأمة ، ونستطيع أن نحصر هذه المعوّقات في العناصر التالية: 1 . داء النظرة التجزيئية، وعدم قدرة بعض الناس على ترتيب الأولويات.

2 . إتسام جمهرة المتدينين بقصور بالغ في الفكر السياسي.

3 . تصدر المتزمتين والمتشددين قافلة الشأن السياسي.

وقد كان يثير حفيظة الشيخ وغضبه مثل هذه الأشياء ، فيشن عليها النكير في مختلف كتاباته.

لذلك فلا سبيل لتفعيل الثقافة المسماة بثقافة المشاركة إلا بإحكام ربط الدين مجددا بقضايا السياسة، وإشغال علماء الإسلام خاصة ، وغيرهم على العموم بالشأن السياسي ، باعتباره جزءا أصيلا من مهام الشريعة والفقه [22].

وفي هذا المضمار رأينا الغزالي شديد الحرص على التنبيه إلى أن البيئات التي تستمتع بمقادير كبيرة من الحرية هي التي تنضج فيها الملكات ، وتنمو المواهب العظيمة ، وهي السناد الإنساني الممتد لكل رسالة جليلة وحضارة نافعة. ولأمر ما اختار الله محمدا من العرب!. إن ذلك يرجع إلى طبيعته الذاتية ، وطبيعة الجنس الذي ينميه على السواء!!.

فإن العرب أيام البعثة كانوا أسعد الأمم بحظوظ الحرية المتاحة لهم ، بينما كان الروم والفرس جماهير من العبيد الذين تعودوا الانحناء للحكام والسجود للملوك وضياع الشخصية في ظل سلطات عمياء وأوامر ليس عليها اعتراض.

أما العرب فكانوا على عكس ذلك ، حتى وكأن كل فرد منهم ملك ، وإن لم يكن على رأسه تاج!.

ونشأ عن ذلك الاعتداد الخطير بالنفس أن كفار القبيلة كانوا يموتون دفاعا عن مؤمنيها، وكانت حرية الكلمة متداولة في المجتمع تداول الخبز والماء. ووسط هذا الجو شقت رسالة الإسلام طريقها صعدا لم تثنها المعوقات الطبيعية التي لابد منها .

ومن الفطر القوية لأولئك العرب الأحرار كانت الانطلاقة التي عصفت بالحكومات المستبدة وبدلت الأرض غير الأرض والناس غير الناس.

ذلك أنه يستحيل أن يتكون في ظل الاستبداد جيل محترم ، أو معدن صلب ، أو خلق مكافح[23].

ولعل حرص الغزالي على هذه الحرية ووجوب أن يكون للأمة منها حظ وافر هو الذي جعله يخاطب قراء أفكاره بقوله:

(للثقافة جيش غير منظور يصل إلى أهدافه في سكينة وسلام.

وإني أودّ أن أسلح القارئ الكريم بهذه الأفكار.

وأملي ألا يقف عند حدود المطالعة العابرة ... ثم الموافقة الباسمة...

فإن من الثقافات ما نعده ترفا فكريا عقليا، ويكون حسب القارئ أن يقف هذا الموقف.

أما إذا تعلق الأمر بحقيقة دين كالإسلام، ومستقبل أمة زحمت التاريخ ، وشغلته قديما وحديثا كالمسلمين ، فالأمر أخطر ممّا نتصور، هو عندئذ ضرورة مادية وأدبية، تجعل من القارئ شريكا للمؤلف ، وتحشدهما معا لخدمة قضية مشتركة ، يتقاسمان –جميعا– أعباءها وتبعاتها، فلعل الذين يقرءون معي ، يقومون بهذا الحق ، ويمدّون شعاع الفكرة ، ويشاركون في إبلاغها الغاية..)[24].

كما كان حرصه الآنف الذكر يدعوه إلى توجيه هذه النصيحة للعاملين في الحقل الإسلامي يقول لهم فيها: (...أهيب بالإسلاميين أولي الغيرة على دينهم ألا يضيعوا وقتا في جدال، وألا ينخدعوا عن فساد الموضوع بفساد الشكل، وأن يتجهوا إلى أمتهم ذاتها يعالجون عشرات العلل الكامنة والوافدة ، التي تنخر في كيانها ، وتباعدها عن كتاب ربها وسنة نبيها .

إن الحالمين بانقلاب عسكري يجب أن يستيقظوا وإلا كانوا هم أنفسهم قسما من المرضى...)[25].

ومثلما أن للسلطة أثرها ووظيفتها في تحقيق قيم الإسلام، فللجماهير مثل ذلك، وفي هذا يقول الغزالي: (لست أنكر قيمة السلطة في اختصار المسافة وإقرار المعروف ، ومحو المنكر، وإني أعلم أن الدولة جزء من الدين ، وأن أجهزتها الفعالة جزء من شعب الإيمان السبعين، وكون الحكم من شعائر الإسلام الحقيقية ، لا يماري فيه إلا جاهل أو جاحد !...

وهذا كله لا يلغي عمل الأمة نفسها في تثبيت العقائد والأخلاق والعادات الحسنة، وفي إعلاء سلطان الضمير ، وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلية، وفي فرض رقابة دقيقة على أجهزة الحكم، وفي إبطال شرعيتها إن هي نسيت وظيفتها، أو جاوزت حدودها. إن الدولة في الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة، وهي يدها التي تحقق بها ما تبغي، وقدمها التي تسعى بها إلى ما تريد.)[26].

وتعبير أن الدولة هي الصورة الظاهرة لباطن الأمة – أو كما ذكر في موضع آخر – جسد روحه الأمة ، من أدق التعابير في تحديد أهمية شأن الثقافة السياسية ومركزيتها ووظيفتها في صياغة شكل الدولة، ونظامها السياسي، وفي ذلك عظة بالغة لدعاة بعث دولة الإسلام، للاهتمام ببذل المزيد من الجهود، لتطوير الثقافة السياسية الذاتية للأمة، وذلك بإنتاج فريد من الدراسات المختصة بتحليل ذلك الشأن، وغرس خلق الشورى ممارسة في كل شؤون الحياة، وتدريب النشء على المسؤولية، والإقدام على المشاركة في اتخاذ القرارات، والجرأة على محاسبة الحكام، فذاك أساس التحول نحو قيم الإسلام ونظمه في محيط السياسة [27].

الهوامش:

(**1**) – – إسلامية المعرفة ، مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي (عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي)، السنة 02 ، العدد 07 ، رمضان 1417هـ/ يناير 1997م . مقال (ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي) لـ: محمد وقيع الله، ص137.

(**2**) – يذكر محمد وقيع الله انتقاد المستشرق هاملتون جب لرشيد رضا واصفا هذا الانتقاد بأنه طريف مثلما كان ثاقبا، وذلك لاستبداله ابن تيمية بأبي حامد الغزالي لتوجيه المدرسة السلفية الحديثة ، فيقول: (صحيح أن أبا حامد انتقد الفلسفة اليونانية وأبان عن تهافتها و عوارها، إلا أنه ظل – بسبب استمرار تأثره بها – أقرب إلى قلوب المستشرقين من منطق الأصالة الصارم لابن تيمية، كما كانت تعاليم ابن تيميه أقرب إلى تحريك الحركات السياسية وتعبئتها من تعاليم الغزالي ، ولذلك فلا عجب أن كان الغزالي ومحمد عبده أقرب إلى عقل جب وقلبه من ابن تيميه ورشيد رضا. يراجع كتابه:

– modern trends in islam (Chicago univ. Press ;1949 p : 34.)

(**3**) – ذلك هو زعم الدكتور: طه حسين الذي كان يميل لإعطاء تلك الوراثة للشيخ مصطفى عبد الرازق 1885 – 1947. ومع جدارة الشيخ عبد الرازق ، واجتهاداته فيما يتصل بمناهج البحث وتأصيل الفلسفة الإسلامية ، إلا أن جهوده لم تكن تتصل مباشرة بالخط السياسي الاجتماعي ، وإنما ظلت حبيسة أطر الأبراج الأكاديمية.

. أنظر إسلامية المعرفة ، ص 106 – 107 .

(**4**) – محمد عمارة : الشيخ الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1992 ، ص36–40.

(**5**) – المرجع نفسه .

(**6**) – عند تحليل المواقف السياسية لدى كل من آلموند وبويل ، تتميز ثلاثة نماذج كبرى للثقافة السياسية ، يطلقان عليها اسم : – الثقافة الهامشية – ثقافة الخضوع – ثقافة المشاركة .

. تعرّف الثقافة الهامشية: بعدم الاهتمام التام تقريبا بالنظام السياسي القومي، فهذا النظام عبارة عن ظاهرة عارضة ملصقة على ثقافات فرعية محلية لا يوجد بينها أي اتصال ، والأفراد ليس لهم موقف خاص من النظام القومي إذ أن مبادراته لا تطالهم وهم لا يعانون من أي مشاعر تجاهه .. أما في ثقافة الخضوع: فالسلطة القومية تكون أكثر حضورا ، إذ أن الأفراد يعرفون أفعالها ، ولديهم تجاهها موقف، لكن هذا الموقف سلبي أساسا ، فهم يحترمونها إذا تجلت من خلال أعمالها الحسنة ، ويخضعون لها إذا كانت تدخلاتها مدمّرة ، ووجود فكرة عمل فردي أو جماعي من شأنه التأثير على عمل السلطة ، هي غريبة بالمرة عن هذا النوع من الثقافة.

. أما ثقافة المشاركة: فإنها تعرف بالعكس من خلال واقع أن المواطنين يكونون فعّالين، إنهم يشعرون بقدرتهم أن يؤثروا على السلطة، ويعدّون مثل هذا السلوك طبيعيا، إن هذا التدخل للمواطنين في الحياة العامة يتجلى من خلال مؤسسات انتخابية، أحزاب، مجموعات ضغط، لكنه لا يقتصر على تنشيط الإطار القانوني، إنه ينشأ وبغض النظر عن هذا الإطار عن حالة ذهنية، وطريقة ما في التفكير بالسياسة وفي عيشها. إن كلمة ثقافة إذن هي الكلمة الوحيدة الواسعة بما فيه الكفاية لأخذ هذه الظاهرة بالحسبان.

. جان ماري دانكان: علم السياسة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، (1412هـ – 1992 م). ص 156 – 157. .

(**7**) – إسلامية المعرفة ، مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي (عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي)، السنة 02 ، العدد 07 ، رمضان 1417هـ/ يناير 1997م . مقال (ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي) لـ: محمد وقيع الله، ص133.

(**8**) – رواه ابن النجار في تاريخه عن عائشة من حديث طويل، والديلمي في مسند الفردوس عن عائشة .

– (**9**) almond , Gabriel A. and verba; sidney : the civic culture revisisted (california : sage newbury ; 1989) p; 26 –32

(**10**) – إسلامية المعرفة، مصدر سابق ، ص 134 .

(11) – محمد الغزالي ، هموم داعية ، منشورات العالمية للإعلام ، ط 1995 م. ص 54 ص 55 .
(12) – محمد الغزالي ، الإسلام والاستبداد السياسي ، دار ريحانة ، الجزائر، ط 1420 – 1999م . ص 29 .
(13) – محمد الغزالي ، الطريق من هنا ، دار القلم دمشق ، ط 3 ، (1421هـ–2000م). ص 84 –85 .
(14) – يرى القارئ أن الغزالي لم يعمم بهذا الحكم كل المفتين أو شيوخ الأزهر أو وزراء الأوقاف لأن فئة من هؤلاء كانوا معبرين بصدق عن رسالتهم والأمانة التي نيطت بأعناقهم، وفي التاريخ المعاصر منهم نماذج لأهل الصدق والبلاء.
(15) – إسلامية المعرفة مقال:(قصة حياة). لـ: محمد الغزالي ، ص198 .
(16) – محمد الغزالي ، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، ص105 .
(17) – يفرق علماء السياسة بين المواقف والسلوك في هذه الدراسات،
–فالسلوك: فعل خارجي يتبناه فرد ما ،– أما الموقف فبالعكس إذ أنه : نزوع داخلي للرد بطريقة خاصة على وضع ما .
فالأول يمكن ملاحظته بصورة مباشرة ، لأنه يحدث في الحين ظاهرا للعيان .
أما الثاني فبالرغم من كونه حقيقيا فليس من وراء تتبعه غير النتائج المحتملة ، التي قد تتحقق وقد لا تتحقق وفقا للظروف .
) المواقف السياسية في ثلاثة فئات : almond and bowellولقد صنف آلموند وبوويل (

1 . إدراكية : وتتجلى في المعرفة التي يراكمها الفرد حول السياسة ورجالها والمؤسسات، وقد تكون هذه المعرفة خاطئة ، لكن المهم هو أن الفرد يعيشها ذاتيا كمعرفة ، أي كمجموعة حقائق موضوعية موجودة بشكل مستقل عنه ، وتبرر بالتالي المواقف التي يستنتجها منها.
2 . عاطفية : تعود بالعكس للمشاعر ، وتتجلى على سبيل المثال بالتعاطف أولا مع هذا الرجل السياسي أو ذاك أو بقبول أو رفض هذا النظام السياسي أو ذاك ، أو هذه الإيديولوجية أو تلك ...الخ
3 . تقويمية : وتتكون من خلال تعريف القيم ، أو بعبارة أخرى: من خلال إعطاء الوقائع السياسية علامة إيجابية أو سلبية.
أنظر : جان ماري دانكان :علم السياسة . (مصدر سابق) ، ص155–158 (بتصرف) .

18 علي عزت بيجوڤيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص 97–98.

19 حتى سنة 1945 كان اليابانيون يتعلمون أن «الميكادو» هو سليل إلهة الشمس، وأن اليابان خلقت قبل بقية العالم. وكان الطلاب يتعلمون هذه الخرافة حتى على يد أساتذة الجامعة. ولكن هذه الحالة أصبحت الآن في ذمة التاريخ. أما اليوم فنصادف خرافات على شكل عبادة القادة في روسيا وفي الصين وكوريا الشمالية (عبادة ستالين، وماوتسي تونج وكيم إل سونج). جميع هذه الخرافات على نمط واحد، مثلاً: «كل كلمة للقائد المبجَّل المحبوب الرفيق كيم إل سونج قد استقرت في أعماق قلوبنا كما يتخلل الماء الأرض العطشى... إننا سنمضي عاقدين العزم على السير وفق الخطة العظمى للتنمية الاشتراكية التي صاغها قائدنا المبجل المحبوب الرفيق كيم إل سونج» من مقال كتبه كيم جون هوي. وفي تابوت زجاجي بساحة أحد المصانع بكوريا الشمالية عُرض حجر بداخله ومكتوب عليه هذه العبارة: «الحجر الذي جلس عليه الرفيق الحبيب المبجل عندما كان يتحدث».

20 –المصدر نفسه، ص 98، وهناك كتاب جيد في هذا الموضوع:

Djura Susinjic Fishermen For Human Souls (Beograd: Zadruga, 1977).k

(21) – محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ، مصدر سابق، ص106
(22) – إسلامية المعرفة ، ص 135 . بتصرف
(23) – محمد الغزالي ، قذائف الحق ، در القلم ، دمشق ، ط3 ، 1423هـ–2002م ، ص236. يقول الشيخ الغزالي تأمل كلمة عنترة لأبيه شداد لما طلب الدفاع عن القبيلة ، قال: إن العبد لا يحسن الكر والفر، ولكنه يحسن الحلب والصر، فأجاب الوالد: كر وأنت حر. وقاتل عنترة وتحت لواء الحرية أدى واجبه، ولو بقي عبدا ما اهتم بهلاك أمة من الناس فقد بينهم كرامته ومكانته.
(24) – محمد الغزالي ، الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، مكتبة رحاب الجزائر .(بدون تاريخ) . ص209 .

(**25**) – محمد الغزالي ، الطريق من هنا ، ص129.

(**26**) – محمد الغزالي ، الطريق من هنا ، ص 123 .

(**27**) – إسلامية المعرفة ، مقال (ملامح الفكر السياسي) ، ص 137 .

المصادر والمراجع :

(**27**) – جان ماري دانكان : علم السياسة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، (1412هـ – 1992 م).

(2) – إسلامية المعرفة ، مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي (عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي) ، السنة 02 ، العدد 07 ، رمضان 1417هـ/ يناير 1997م .

:- (4) almond , Gabriel A. and verba; sidney : the civic culture revisisted (california : sage newbury ; 1989) .

(5) – محمد الغزالي ، هموم داعية ، منشورات العالمية للإعلام ، طبعة 1995 م.

(6) – الإسلام والاستبداد السياسي، دار ريحانة ، الجزائر1420 – 1999م.

(8) – الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر..

(10) – الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مكتبة رحاب الجزائر (ب ت)

(11) – الطريق من هنا ، دار القلم دمشق ، الطبعة الثالثة ، (1421هـ–2000م).

(12) – قذائف الحق ، در القلم ، دمشق ، ط3 ، 1423هـ–2002م.